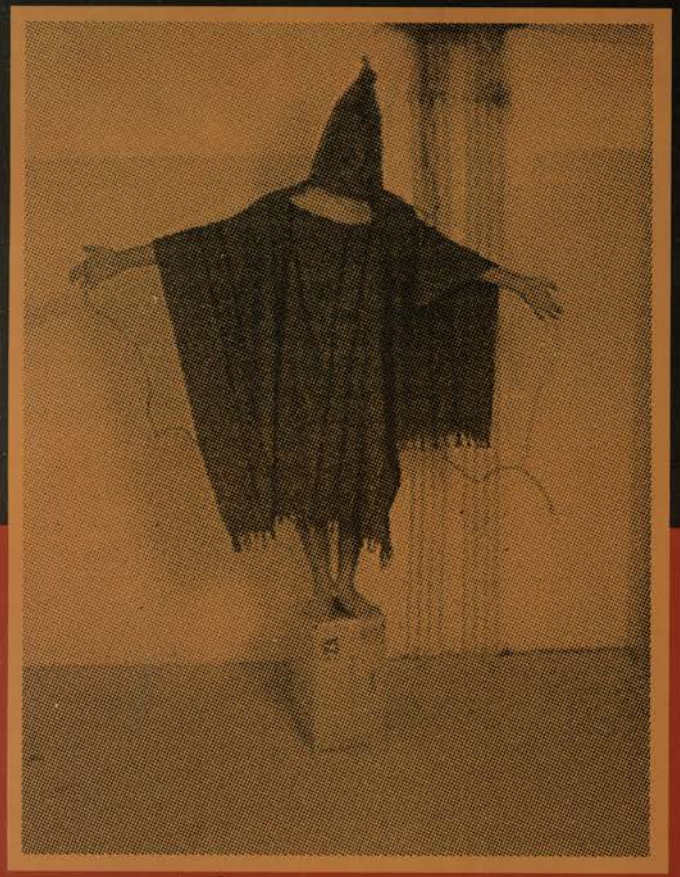

مازالوا يخشوْننا: إذًا لم نمتْ!

عمر البرغوثي

بعد جنين وأبو غريب والفلوجة ومقر الديب ورفح ... ما العمل؟

صُعِقنا، بكينا، ولم نغيِّر شيئًا. ولكنّ كيف نَطْمح إلى التغيير، وأصابعُ الإمبراطورية تَكْتب البيانات الختاميةَ للقمم العربية؟

عندما تنطفئ أضواؤنا، قد يكون من الحكمة أن نستنير بشعيّعاتٍ من بعيد... من بيت السيّد الجديد نفسه. فلقد ارتعد البيتُ الأبيضُ من صور أبو غريب، لا لوازع أخلاقي، بل لأنها قد تثير «القلاقلَ» في بلاد العرب، حيث النفطُ والغضبُ يَسْبحان تحت الرمال الساكنة. وحتى لو كان إعلامُهم وبعضُ إعلامنا يَعْزفان ليلَ نهارَ أسطوانةَ العجز وقلةِ الحيلة، فإنّ مؤسسات بحث الأسياد الجدد تعتقد غيرَ ذلك: فكلّ شيء في بلادنا يحلَّل عندهم بعناية؛ حتى إنّ أهل رام الله يتندّرون أحيانًا بأنّ أفضل طريقة لمعرفة أخبار الجيران هي من خلال مشاهدتها على CNN أو سماعها على BBC.

إنّ هذا الهوس بنا هو وليدُ الخوف المتأصّل عندهم من احتمال ـ مجرد احتمال ـ نهضةِ المشرق العربي من جديد: فَهُمْ لم ينسَوْا أنّ أمةً أنتجتْ حضارةً مشعّةً في الأمس تستطيع أن تَبْعث مجدَها من الرماد ذاتَ يوم.

ألا يكفي ذلك ليُرْشدنا إلى بداية الطريق؟ وهل ننجح، إذن، في حفر الخندق الأول في مسيرة مقاومة الإمبراطورية؟

هل نستطيع أن نبني حركات ديموقراطيةً تقدميةً تَسْتنهض كرامتَنا، وتُنْعش أحلامَنا، وتحثّنا على العمل لتحقيقها بذكاء؟ هل يُمْكننا أن نُجْبر بعضَ حكوماتنا على مقاطعة الأسلحة الأمريكية مثلاً؟ هل نبدأ بالعمل لتحويل عملة التداول بالنفط من الدولار إلى عملةٍ أخرى، كسرًا لهيمنة الأول؟ هل ننجح في الضغط لسحب ثرواتنا المستثمَرة في اقتصادهم، وتحويلها إلى دولنا وإلى الصين والهند وماليزيا مثلاً؟ هل نبني جسورًا مع شعوب الجنوب والشمال لتنسيق حملات المقاطعة الشعبية لأهمّ منتجات الشركات التي تُسْهم في اضطهاد الشعوب؟

وهل بإمكاننا إطلاقُ صيرورةٍ عصرنةٍ لثقافتنا، بتواصلٍ مع جذورنا، وبحوار مع العالم في آن؟ هل ننجح في اجتثاث الماضوية التي أَقْنعوا بعضَنا بأنّها أصيلة في تراثنا، وفي إلغاء التمييز ضد المرأة والأقليات، وفي احترام حقوق الإنسان والاختلاف، وحرية الفكر والتعبير، ومحاربة الاستبداد الأبوي في البيت والمدرسة والعمل ودار العبادة والوزارة؟

لِمَ لا؟ فنحن لم نَمُتْ. وإذا لم نعد نصدِّق نجاحاتِنا النسبيةَ في لبنان وفلسطين، والآن في العراق، فلنصدِّقْ رعبَهم على الأقلّ. إنهم ما زالوا يخشوننا: إذًا نحن لم نَمُت!

المهم أن نَفْعل، وأن نحوِّل الطاقةَ الكامنةَ إلى حركة للتغيير... في كل مجال. فمقاومة الإمبراطورية لا يُمْكنها إلاّ أن تكون شاملةً، أصيلةً، منفتحةً، عصريةً و... أخلاقية.

رام الله